مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد التاسع ـ يناير 2016م

المدينة الفاضلة دراسة تحليلية مقارنة

د. رمضان على حسن القرنشاوى
كلية الآداب – جامعة عمر المختار

تقدمة وتمهيد:

المدينة الفاضلة هي المجتمع المثالي الذي يسير في حياته على هدى الأخلاق، وكل فرد فيه يؤدى الوظيفة التي تلائم كفاياته، وأفراد المجتمع كأعضاء البدن متضامنون، يخضعون لرئيس المدينة ويتشبهون به، وهذا الرئيس فيلسوف في الفكر اليوناني أو نبي في الفكر الإسلامي، اكتملت لديه الخصال التي لا تتوافر في عامة الناس.(1)

والمدينة الفاضلة هي تصاميم ذهنية مادية ومعنوية لمنشات وأنظمة نموذجية، وقيم حضارية مثالية، غايتها تحقيق الكفاية والعدالة والسلام والسعادة للمخلوقات، يبتكرها الفكر الإنساني ويحيط بها بأجواء من الخيال الجامح والغموض الساحر، والرمز المشوق، موحيا بأن العالم الموصوف هو عالم واقعى موجود بالفعل.(2)

والمجتمع المثالي ما هو إلا محاولة من قبل الفلاسفة والأدباء للنهوض بالمجتمع وإقامة نماذج للدول الرشيدة في محاولة لتحقيق البشر للفردوس الأرض.(3)

وهو يعنى نظما متعددة ومذاهب مختلفة في السياسة والاجتماع والاقتصاد(4)، والمدينة الفاضلة كما جاءت في فلسفة أفلاطون تعنى الدولة وهى في نظره أسرة كبيرة، تسودها المشاعر العائلية، وهكذا تكون المدينة، والدولة، والأسرة، ألفاظا لمفهوم واحد(5).

وفكرة المدينة الفاضلة كما جاءت في كتابات الفلاسفة والمفكرين تهدف أساسا إلى تكوين مجتمع فاضل (يوتوبيا)، وهى فكرة قديمة تمتد إلى عصر ما قبل فكر أفلاطون.(6)

ويرى البعض أن المدينة الفاضلة ممكنة الوجود وأنه يمكن للناس أن تعيش في مدينة فاضلة، لكنها ليست بالمواصفات التي وصفتها كتابات الفلاسفة، والتي تصل من وجهة نظرهم إلي تصور مثالي للغاية لا يمكن لبشر بلوغه.(7)

يلعب الخيال الدور الأكبر في كل الأشكال والمشروعات اليوتوبية بدءً من جمهورية أفلاطون وهى النموذج الأول لكل اليوتوبيات وانتهاءً بروايات الخيال العلمي، ولكن الأفكار والخيالات العلمية لم تكن غير استجابات مختلفة للمجتمعات التي نشأت فيها، فكانت تعبيرا عن الرغبة في تغيير الواقع القائم وتجاوزه، والحلم بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلا، لذلك لا يمكن فهم التفكير اليوتوبي القديم والحديث حتى نضعه في سياق التطور التاريخي والاجتماعي، ظالمه وفاسدة، لنعرف وندرك انه كان صرخة احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعية ظالمة وفاسدة.(8)

لماذا المدينة الفاضلة؟

قبل أن نتناول تطور فكرة المدينة الفاضلة عبر العصور المختلفة نود أن نشير إلى الأسباب التي دفعتني إلى تناول هذا الموضوع ويمكن إيجاز هذه الأسباب فيما يلي:

1- تكشف اليوتوبيا عبر تاريخ الفكر الفلسفي عن العلاقة الوثيقة التي تربط بين التفكير اليوتيوبي، والواقع الاجتماعي مما يسهم في الكشف عن طبيعة وظروف كل عصر وهذا يساهم بلا شك في تفسير كثير من العوامل التي ساعدت في التطور الحضاري.

2- المدينة الفاضلة عند أفلاطون ما هي إلا صدى للازمات العنيفة التي توالت على مدينته الخالدة "أثينا"، بل هي ثمرة فترة عصيبة من تاريخها ولذا فان دراسة المدينة الفاضلة عنده تكشف لنا عن جوانب كثيرة في فلسفته، ولا شك في أن جمهورية أفلاطون قد أثرت على العديد من المفكرين والفلاسفة اللاحقين عليه، حيث عرفها الفارابي وتأثر بها كما سنتبين، كما أثرت في فلسفة القديس أوغسطين في مدينة الله، ولا نبالغ إذ توصلنا إلى أن نظام التعليم في العصور الوسطى كان قريبا جدا من مناهج الدراسة في الجمهورية، إذ قسمت العلوم في تلك المرحلة إلى مجموعة رباعية، تتكون من الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وفى عصر النهضة، تأثر بها توماس مور في يوتوبياه حيث دعا فيها إلى ما جاء في الجمهورية من شيوعية الأموال.

3- إن عصرنا هو عصر الإرهاب والقتل والتنكيل بالإنسان وتعذيب البشر أينما كانوا ولا شك أن الإنسان في أي مكان وأي بقعة في العالم يحلم بعالم يسوده الأمان وينتشر فيه العدل ويحقق الإنسان فيه سعادته، ومن المؤكد أن فكرة المدينة الفاضلة حلم داخل كل إنسان يسعى إلى تحقيقها على الحقيقة.

4- فكرة المدينة الفاضلة تعد ملجأ كل مفكر وفيلسوف يفر من عصره باحثا عن أماله وأحلامه التي لم يجدها في عصره.

5- ارتبطت فكرة المدينة الفاضلة عند أفلاطون بمفهوم العدالة السياسية، ففي نظره لا يمكن حل مشكلة الحقيقة الفلسفية بغير أن تحل مشكلة العدالة السياسية، ولا شك أن فكرة العدالة خاصة في مجال السياسة هي الفكرة والمطلب الأساسي لكل مجتمع.

4- يعد كتاب الجمهورية من أهم ما كتب في الفلسفة بصفة عامة وعند أفلاطون بصفة خاصة لما تضمنه من نظريات مختلفة ارتبطت لتكون نظرة عامة لحياة الإنسان والمجتمع، وكان لها في تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم ير مثله أي كتاب أخر من كتب الفلسفة وهذا ما يعطى لدراسة المدينة الفاضلة أهمية وقيمة تاريخية.

6- الشعور بعدم الحرية والمساواة وتهافت العدالة مطلب كل إنسان بداخله حلم بعالم ومستقبل أفضل، حلم في تحقيق السعادة القائمة على الفضيلة والأخلاق.

7- ما زالت يوتيوبيا أفلاطون مصدر الهام لكثير من الفلاسفة والكتاب والشعراء الذين يتطلعون إلى عالم أفضل، فلقد كانت لدولة أفلاطون اثر كبير على كل الفلسفات اللاحقة عليه، فقد عرفها الفارابي وتأثر بها في مدينته، كما تأثر بها القديس أوغسطين في مدينة الله، بل إن نظام التعليم في العصور الوسطى كان قريبا جدا من مناهج الدراسة في الجمهورية، ومع عصر النهضة بعثت جمهورية أفلاطون من جديد على يد توماس مور والذي دعا في فلسفته إلى بعض ما جاء في الجمهورية من شيوعية في الأموال عمها على المجتمع، وفى العصر الحديث أثرت فلسفة أفلاطون السياسية بما دعت إليه من ضرورة التخطيط العلمي للمجتمع وما ينبغي على الدولة أن تقوم به من مهام تربوية واجتماعية، وهذا يعطى أهمية كبير لدراسة المدن الفاضلة عبر التاريخ.

8- الرغبة في تغيير العالم هي العامل المشترك بين الفكر القديم والمعاصر.

9- غاية المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية أو اليوتيوبيا واحدة قديما وحديثا وهى البحث عن عالم يسوده الأخلاق والحب والخير.

10- العلم والتربية مطلب أساسي وهام في كل المدن الفاضلة عبر عصورها المختلفة وهذا المطلب من أهم مطالب عالمنا المعاصر.

11- المجتمع المثالي يمثل قمة الفكر الفلسفي غبر عصوره المختلفة، وهو وثيقة في غاية الأهمية، وثيقة تاريخية يكشف ويفسر لنا كثير من الأحداث، إنه أحد الأركان الرئيسية، لمسيرة الإنسانية نحو أمالها الكبرى، وفى كثير من الأحيان يدلى الفيلسوف بفلسفته كاملة تحت هذا الموضوع وهذا يؤكد لنا أهمية دراسة هذا الموضوع.

12- المدينة الفاضلة تعبر وتكشف لنا عن بداية ووعى الإنسان بمشاكله الحقيقية، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومحاولة إيجاد حلول لهذه المشكلات.

13- المدينة الفاضلة أحد القضايا عند المسلمين التي توثق عندهم العلاقة بين الفلسفة والدين.

14- وتكشف لنا عن جانب من جوانب الأصالة في هذا الفكر في ضوء أفكاره ومقترحاته في تكوين دولة مثالية يكون على رأسها الفيلسوف أو النبي، فالفاربي يوظف في مدينته السياسة في العلم الإلهي ولا فرق عنده بين الوحي والفلسفة فكلاهما يصلان إلى الحكمة، وأيضا تكشف فكرة المجتمع المثالي عن مدى عمق الصلة بين الفلسفة والمجتمع، ويظهر بجلاء أن تاريخ الفلسفة ما هو إلا سجل حافل للكفاح العقلي من أجل الحياة.

15- كما أن دراسة المدينة الفاضلة من منظور إسلامي يكشف لنا عن رفض فلاسفة الإسلام لكثير من الآراء التي جاءت في جمهورية أفلاطون من شيوعية النساء والأطفال والملكية ولا شك أن هذا الرفض يؤكد لنا أن

الفكر الإسلامي لم يكن تابعا ومقلدا كما زعم بعض المستشرقين وإنما كان فكرا له أصالة نابعة من العقيدة الإسلامية.

الغاية من البحث :-

يدور البحث حول تحديد صورة الدولة المثالية كما تصورها ورسمها الفلاسفة، والتي تتحقق فيها العدالة وسعادة الإنسان هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان الغاية من المدينة الفاضلة هو تمكين أهلها من بلوغ كمالاتهم الإنسانية، كما حددها أرسطو في كتاب الأخلاق، وهى الفضائل النظرية (فضيلة العقل الفلسفي)، والفضائل العلمية (العلم وتطبيقاته)، والفضائل العملية (الأخلاق والسياسة)، والفضائل الخلقية (السلوك الأخلاقي).

صيغ تقديم المدن الفاضلة عبر العصور المختلفة:

المدينة الفاضلة التي حلم بها بعض الفلاسفة كان لها اثر كبير في مسيرة الحضارة الإنسانية في الشرق والغرب على السواء، حيث وضع كل فيلسوف خلاصة أفكاره وما استنبط من ثقافة عصره في كتاب، بين فيه دراسة ما يحيط به من واقع وما يجتهد به من رفع منزلة الإنسان إلى درجة أعلى والعمل على تلبية حاجات الناس والتغلب على المصاعب ليحيا الناس جميعا في مدينة مثالية، سعداء.(9)

وقد تنوعت النماذج اليوتوبية عبر العصور الفلسفية وقد أخذت فكرة المدينة الفاضلة عدة أشكال منها أدبية سواء (المقال، والقصة، والرواية، والقصيدة)، أو في شكل نظريات سياسية، حيث تقديم صورة لنظام سياسي نموذجي بمؤسساته المختلفة، مع تصور كامل لكل تنظيمات الحياة، أو على شكل نظريات فلسفية.(10)

في الفلسفة اليونانية استخدم أفلاطون المحاورة لعرض وتصوير مدينته الفاضلة "أثينا القديمة" والتي صمدت بوجه دولة أطلنتس المتقدمة حضاريا، ذات القوة الغاشمة، وذلك في عدة محاورات منها محاورة طيماوس، واكريتس، ومحاورة الجمهورية(11).

أما في العصر الإسلامي فقد استخدم الفارابي طريقة البحث في عرض وتناول مدينته الفاضلة، حيث شرح تصوره للمدينة الفاضلة، وشرح مضاداتها، أي المدينة الجاهلة وأشكالها وأصنافها كما سنتبين بالتفصيل.(12)

وقد جاءت المدينة الفاضلة في العصر الحديث بمعنى "يوتيوبيا" وتعنى ليس في مكان، وكان أول من استخدمها توماس مور (1468– 1535)م، وتعنى يوتيوبيا بالعربية نموذج لمجتمع خيالي، مثالي، يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه، ويتحرر من الشرور التي تعانى منها البشرية، وأصبح فيما بعد لمصطلح اليوتيوبيا معاني كثيرة غير التي استخدمها مور، فصارت تطلق على كل اصطلاح سياسي أو أي تصورات خيالية مستقبلية، أو احتمالات علمية وفنية، ومع ذلك تبقى كلمة يوتوبيا تصورا فلسفيا ينشد انسجام الإنسان مع نفسه ومع الآخرين ومع مجتمعه، فالفكر اليوتوبى معنى في الدرجة الأولي بخلق أفكار وتصورات للانسجام الاجتماعي، وهو يصدر عن الخيال الأدبي، أو التصور الفلسفي.(13)

أما في عالمنا المعاصر فتتجه قصص المدن الفاضلة إلى عرض عوالم تتمثل فيها مساوي عالم الواقع بشكل مجسم ظاهر ومبالغ فيه أحيانا وذلك على سبيل التحذير والتبصر بما يهدد الإنسانية من أخطاء في حال عدم تغير مسيرتها الشاذة.

ويعد الطابع القصصي هو الصيغة الغالبة لتناول ومعالجة فكرة المدينة الفاضلة، وقد اخذ هذا القالب بعض المقاييس الفنية لدرجه أصبحت فيها قصص

المدن الفاضلة، تشكل لونا قصصيا له طابعه المميز، يختلف عن قصص الخيال العلمي، وإن كان هناك أوجه التقاء وتشابه(14).

ومع تطور شكل وصيغة اليوتوبيا عبر التاريخ إلا أنها تظل في النهاية تمرد على الواقع ومحاولة تغيره إلى الأفضل ومع ذلك لم تجد الغالبية من المشروعات اليوتوبية طريقها إلى التطبيق، والقليل النادر التي طبق منها كان مصيره الإخفاق، ومع ذلك لم يكف ولن يتوقف العقل الإنساني عن الحلم بواقع أفضل مما هو عليه، فالحلم قائم طالما أن الإنسان يحيا.

المؤثرات الفكرية والفلسفية والسياسية للمدينة الفاضلة عند كل من أفلاطون والفارابي وتوماس مور:

1- قضى أفلاطون أثني عشر عاما بعد موت أستاذه سقراط، ينتقل من بلد إلى أخر، يتلقى الحكمة من مصادرها، ويتذوق كل فكر وعقيدة، صدم لأول مرة بمأساة أستاذه سقراط التي ملأت نفسه احتكارا لديمقراطية الرعاع التي أنهت حياة أستاذه، وبدت أثينا كأنها مأوى الشياطين ولذا اثر الرحلة.

2- عاد أفلاطون إلى أثينا بعد رحلات عديدة، وقد بلغ أربعين عاما، تبلورت فيها فلسفته وتحدد فكره، وتميزت ملامحه، ولم يجد أمامه إلا الإصلاح السياسي والاجتماعي في العدالة والفضيلة لخدمة الدولة، التي يجب أن يتولاها الملك الفيلسوف، أو الفيلسوف الملك.(15)

3- كتب أفلاطون محاورة الجمهورية في فترة تدهور في التاريخ اليوناني حيث انتهت الحرب البلوبونيزية (431- 404) ق. م وهى الحرب الأهلية التي كانت بين أثينا واسبرطة، والتي انتهت بالهزيمة الساحقة لأثينا(16). أصبحت أثينا بعد انتهاء الحرب تعان إنهاك سياسي

واقتصادي، من هنا كان من الطبيعي أن تأتى كتاباته معنية بالقضايا السياسية والاجتماعية، وحاول أن يجد بعض الدروس المستفادة من هزيمة أثينا، وقد أعجب أفلاطون بالدولة المنتصرة (اسبرطة) واعتبرها نموذجا له.(17)

4- كانت للأفكار الفلسفية السائدة في عصره الأثر الكبير في توجه أفلاطون تجاه دولته الفاضلة سواء كانت أفكار السوفسطائيين المعرفية وتشكيكهم في كل شيء أو صغار السقراطيين وأفكارهم حول القيم الأخلاقية واستهانتهم بها(18).

كل هذه الأسباب وغيرها كانت دافعا قويا ومؤثرا كبيرا، دفع أفلاطون إلى فكرته حول مدينته الفاضلة.

وقد انطلق أفلاطون في مدينته الفاضلة من قضية تقع في قلب السياسة وهى فضية "العدالة" يبحث عن المعان المختلفة التي يعطيها الناس للعدل، كل من زاوية منظوره الشخصي الذي يتحدد سياسيا بوصفه رئيسا أو مرؤوسا، مسالما أو طاغية، فقيرا أو غنيا، لينتهي في أخر الأمر إلى أن مشكلة العدالة يجب أن تطرح على المستوى العام، مستوى المجتمع والدولة المدينة، من هنا ينطلق في البحث عن تشييد نظام للحكم تتحقق به العدالة، أي المدينة الفاضلة، مركزا على جانب الإعداد بالتربية والتعليم، مستعرضا نظم الحكم التي عرفتها المدن اليونانية، محللا سياستها تحليلا ناقدا، متتبعا تحول بعضها إلى بعض(19).

أما على المستوى الفكري الذي كان له اكبر الأثر في توجه أفلاطون نحو مدينته الفاضلة هو فكر وفلسفة السوفسطائيين وإنكارهم للمعرفة وتشكيكهم في كل شيء حتى القانون والذي اعتبروه من صنع الضعفاء(20).

لقد جاءت دولة أفلاطون كرد فعل للاتجاهات الرئيسية للفكر الفلسفي في عصره، إذ امن بضرورة الإلزام الأخلاقي، وبعدم المساواة والسلطة، وبالقوانين الصارمة، والتنظيمات الثابتة.(21).

أما الفارابي فقد ولد عام 259هـ وتوفى عام 339هـ وكان عصره أيضا مليء بالاضطرابات السياسية والفكرية وقد عاصر الخلافة العباسية في العهد الثاني بعد أن توقفت حركة النهضة العلمية والسياسية الكبرى التي قادتها بغداد وقد عاصر الفارابي عصر تدهور الدولة حيث وقع الخلفاء العباسيون تحت سيطرة المماليك الأتراك والسلاجقة وتمزقت الإمبراطورية الكبرى إلى دويلات، وقد عاش الفارابي في مناخ ثقافي وفكري مضطرب حيث كان الخلاف بين المسلمين حول قضية الإمامة وما أحدثته تلك القضية من فرقة وظهور الفرق الكلامية المختلفة بما تحمله من أفكار وآراء يشوبها الجدل والانقسام ومن هذه القضايا مشكلة الجبر والاختيار، ومشكلة خلق القران ومشكلة الأسماء والصفات والتأويل وغير ذلك من مشكلات، وفى ضوء هذه الأحداث انتقل الفارابي إلى كثير من مراكز الحضارة الإسلامية وأهمها دمشق والقاهرة وحلب، وأيضا من أهم العوامل الفكرية التي أثرت على توجه الفارابي للتأليف والكتابة حول المدينة الفاضلة الانتماء الفكري لأفلاطون وأرسطو حيث كان يتابع هذا الفكر شارحا أحيانا ومقلدا في أحيان أخرى ثم مؤلفا من منطلق إسلامي فكان من الضروري أن يطلع على التراث اليوناني ويكتب رأيه بصراحة حول اغلب القضايا التي تناولها هذا الفكر ومن أهم هذه القضايا المدينة الفاضلة(22).

أما فيما يتعلق بنقطة انطلاق الفارابي حول مدينته، فقد انطلق من علم الكلام في الإسلام حيث بدأ الحديث عن مدينته في القول في الموجود الأول "الله"، والقول في نفى الشريك عنه، والقول في نفى الضد عنه، والقول في أن وحدته هي عين ذاته، وأنه تعالى عالم حكيم، وأنه حق وحى وحياة، والقول في عظمته

وجلاله حتى إذا استوف القول في باب الذات والصفات، انتقل إلى ثالث أبواب علم الكلام، باب "الأفعال" والذي موضوعه خلق الله للعالم، العلاقة بين الله والإنسان، وهذا ما جاء في مؤلفه "أراء أهل المدينة الفاضلة" من فصول، الأول القول في الموجود الأول، الثاني في نفى الشريك عنه تعالى، الثالث في نفى الضد عنه، الرابع في نفى الحد عنه، الخامس القول في أن وحدته عين ذاته، السادس القول في عظمته وجلاله، ثم القول في كيفية صدور جميع الموجودات عنه، ثم القول في مراتب الوجود الخ(22).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الإنسان والقول في أجزاء النفس الإنسانية وقواها والقول في خصائصها ليصل إلى القول باحتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون ومنه ينتقل إلى القول للعضو الرئيس لهذا الاجتماع، والقول في خصال رئيس المدينة الفاضلة، ومنه إلى القول في مضادات المدينة الفاضلة. (23)

لقد جاءت فكرة المدينة الفاضلة عند الفارابي من كون الإنسان هيكل عضوي، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد، ووحدة الإنسان تقودنا إلى وحدة الحقيقة الدينية والفلسفية، ووحدة الكون في شموله، تلح علينا هذه الأفكار بصدق وموضوعية أن يكون المجتمع البشرى واحدا، وهذا هو قمة الاجتماعات البشرية.

وقد كتب الفارابي رسالة بعنوان (كتاب الملة) عقد فيها مقارنة بين المدينة التي يؤسسها النبي "مدينة النبوة في الإسلام" والمدينة الفاضلة الفلسفية، فسوى بينهما على أساس نظريته في العلاقة بين الدين والفلسفة والتي تتلخص في القول: ما تعطيه الملة هو محاكيات لما في الفلسفة. (24)

نعم إن الدولة عند الفارابي تنطلق من العقائد بالإضافة إلى الرئيس، ويأتي على قمة العقائد موضوع النبوة، وهى محاولة للفارابي للتوفيق بين الدين والفلسفة، فالنبوة عنده وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء وضرورة

لحياة المدينة الفاضلة من الناحية السياسية والأخلاقية، فمنزلة النبيل لا ترجع إلى سموه الشخصي فحسب، بل لما له من اثر في المجتمع.(25)

وتتشابه الظروف السياسية والدينية عند توماس مور (ت1535) والفارابي (ت339هـ) فقد عاش أيضا في فترة تاريخية يأمل فيها انجاز إصلاحات اقتصادية ودينية ملحة بالطرق السليمة، غير أن هذا الأمل تبدد بعد سنوات قليلة واتضح أن الإصلاحات لا يمكن أن تتم إلا عن طريق العنف والصراعات المذهبية، ولم يعد في مستطاع مستشار انجلترا الذي أدان الملحدين وحكم عليهم بالموت على المحرقة، كما قضى عليه هو نفسه أن يضحى بحياته في سبيل معتقداته الدينية، لم يعد في مستطاعه أن يتصور مجتمعا يراعى فيه التسامح الديني على أوسع نطاق (26).

وعلى الرغم من أن مور وضع كتابه في فترة الهدوء الذي يسبق العاصفة، فقد كان على وعى حقيقي بالمشكلات الاجتماعية والسياسية التي تتطلب حلا، ولكنه لم يكن مصلحا عمليا، لذا قدم حلا منفصلا عن الواقع انفصالا كاملا، كان هذا الحل بمنزلة حلم هروبي كما في نفس الوقت وسيلة للسخرية من المؤسسات والحكومات التي عاش في ظلها (27).

أن يوتوبيا مور تعكس قراءاته المتنوعة وتأثره الكبير بأفلاطون وبمدينة الله للقديس أوغسطين وغيرها من أعمال ومع ذلك فهي تختلف عن الأعمال السابقة، إنها عمل أصيل، استطاع فيه مور أن يؤلف بين ما تعلمه من الكتاب الكلاسيكين، وما أدى إلى اكتشاف العالم الجديد وعصر النهضة من اتساع في الآفاق.

نعم لقد أجابت يوتوبيا مور عن كل الأسئلة التي كانت تشغل عصره وبلده ومن هذه المسائل إصلاح الكنيسة إصلاحا ليبراليا وإنسانيا بعيدا عن الانقسامات

المذهبية، وقد هاجم مور السلطة المستبدة لرجال الدين ونظام الحكم الملكي، كما امن بضرورة تخلى الإنسان عن أنانيته وشهواته وتكبره قبل التفكير في إيجاد المجتمع الأفضل.

ومع محاولة مور معالجة كثير من المشكلات الاقتصادية فى اقتراحات عملية إلا انه دفع ثمن هذه الإصلاحات وهى حياته حيث أعدمه الملك هنرى الثامن

لم يقدم مور أفكار مجردة أو عرض نظري لما يجب أن تكون عليه الدولة المثلى كما فعل أفلاطون في جمهوريته والفارابي في مدينته، بل قدم صورة أدبية لجزيرة مثالية ادعى أنها حقيقة واقعة صادفها الروائي أثناء رحلاته وتركت في نفسه أثرا قويا فنقل صورة مفصلة لها، وربط بينها وبين عالم الواقع عن طريق الموازنة، وإبراز أوجه الشبه والخلاف ممارسا بذلك قواعد الرواية اليوتوبية والتي عرفت فيما بعد، والتي تعتمد في سبيل تقديم مضمون فكرى اجتماعي أو سياسي على التشويق والتجسيم والإيحاء بأن العالم الذي يصفه الكاتب عالم واقعي موجود بالفعل. (28)

ومع ذلك فان هذا العالم الجديد لا يمثل فى جميع الأحوال العالم المثالي المرغوب فيه، بل على العكس من ذلك قد تتمثل فيه مساوئ عالم الواقع بشكل مفرط وذلك على سبيل التحذير والتبصير بما يهدد الإنسانية من أخطار.(29)

والواقع أن مور قدم صورة براقة لدولته المثالية، كما قدم أيضا صورة قاتمة لمساوئ العصر الذي عاش فيه وشخص عيوب نظم الحكم والحياة الاجتماعية تشخيصا بارعا وابرز بلمسات إنسانية رائعة ما في ذلك العصر من صور الظلم والقهر والاستبداد.(30)

وتتميز يوتوبيا مور بأنها ترتبط بأحلام الإنسان وبواقعه في نفس الوقت وهذا بخلاف جمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي التي كشفت عن أسس وملامح المجتمع الفاضل فقط

إن ما تعالجه يوتوبيا مور من قضايا سياسية واجتماعية، ليست وفقا على عصر معين أو مكان بالذات، ولكنها قضايا إنسانية عامة، تتخذ أشكالا مختلفة في العصور المتعاقبة وتحت الظروف المتغيرة ولكنها واحدة فى جوهرها.

من هنا فقد ظلت يوتوبيا مور عملا حيا حيث تم ترجمتها إلى عديد من لغات العالم وظهرت في طبعات مختلفة متعددة، ويوتوبيا مور صرخة احتجاج على ما كان يسود أوربا من حرب وظلم ودعوة إلى السلام والعدالة والمساواة ورد مسبق على كتاب مكيافللى "الأمير" الذي قدم صورة واقعية لتلك الفترة، أو الفلسفة التي تبرر الاحتكار والاستغلال والاستبداد(31).

تعقيب

المدينة الفاضلة بين أفلاطون والفارابي وتوماس مور

فلسفة أفلاطون تقوم على الثنائية، ثنائية الوجود والحقيقة، فهناك عالم الظواهر اعني العالم الحسي وهو عالم غير حقيقي، أما عالم المثل فهو العالم الحقيقي في نظر أفلاطون، أما الفارابي، فقد انطلقت فلسفته من الإيمان المطلق بالوحدة، الوحدة في الإله، والكون، والمجتمع الإنساني، فالموجود الأول عقل وعاقل ومعقول وهى تعنى معنى واحد، وذات واحدة، وجوهر واحد غير منقسم، والكون بأجزائه المختلفة يسير في تناسق عجيب ويخضع لترتيب بديع ويحكمه ناموس واحد.

يتفق الفارابي مع أفلاطون في ضرورة وجود رئيس للمدينة ولكنهما يختلفا في أن الرئيس في فلسفة أفلاطون فيلسوف، ينزل من عالم التأملات إلى عالم السياسة، بينما الرئيس في فلسفة الفارابي فيلسوف ونبي، بنى الفارابي كل آماله

عليه ويشترط فيه شروط كثيرة يتفق في اغلبها مع أفلاطون ويختلف معه في ضرورة اتصاله بالعقل الفعال الذي يستمد منه الوحي والإلهام، والعقل الفعال احد العقول العشرة المتصرفة في الكون، وهو نقطة الاتصال بين العبد وربه ومصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية.(32)

للظروف السياسية وضعف وانهيار الدولة الأثر الأكبر في فكرة المدينة الفاضلة عند كل منهما، فالبحث عن عالم أفضل تسوده العدالة ويحقق فيه الإنسان سعادته المطلب الأساسي في فلسفة كل منهما.

لم يعرف أفلاطون فكرة المجتمع العالمي، أو الدولة العالمية بل اكتفى بفكرة دولة المدينة، بينما ذهب الفارابي إلى أن أعظم اجتماع، هو اجتماع الإنسان في المعمورة قاطبة أي المجتمع العالمي.

يجمع الفارابي في دولته بين الشرع والعقل، بين الفلسفة والدين فالرئيس فيلسوف ونبي، بينما أفلاطون يعتمد في دولته على الملك الفيلسوف، فدولة الفارابي لا تفرق بين البشر ولا تعرف الطبقية، بينما يقر أفلاطون في مدينته بطبقية المجتمع حيث المجتمع في نظره ينقسم إلى ثلاث طبقات، الحكام، والجند، والكادحون، والعدالة تتحقق في المجتمع بالتزام كل طبقة بالوظيفة المكلف بها، نعم لقد قسم أفلاطون المجتمعات البشرية إلى نوعين يونانية وبربرية وجعل الأولى سيدة الثانية، وهى عنصرية واضحة لم تعرفها دولة الفارابي القائمة على فكرة النبوة.

نادى أفلاطون في مدينته بشيوعية النساء والأولاد والملكية، ونادى بترك المرضى للموت، ونادى باغتصاب حق الحياة من المشوهين والعاهات، بخلاف مدينة أو دولة الفارابي التي تعتمد على وحدة المجتمع وتلاحمه, المدينة الفاضلة عند الفارابي فاضلة لرئاسة طبقة الفلاسفة للمدينة والتزام طبقة الجند والكادحون

بما كلفوا به بينما دولة الفارابي فاضلة، إذا كان أهلها يعتقدون في المبدأ الأول "الله" وفى "الثواني" أي العقول الفلكية التي هي الملائكة في نظره، وفى صدور الموجودات عن المبدأ الأول بواسطة "الثواني"، وفى العقل الفعال الذي هو ملاك الوحي الضروري في السياسة.(33)

صفات الحاكم وصفات الفيلسوف كما حددهما أفلاطون لا تنسجمان، فالحاكم عنده لابد أن يكون ديكتاتوريا، أو حاكما مطلقا، على أن ديكتاتورية الفيلسوف مستحيلة، لان الفيلسوف بطبيعته ابعد الناس عن الاستبداد برأيه وفرضه على الآخرين، وبنظرة فاحصة نرى أن حكومة الفلاسفة قائمة على شرعية عقلية، وفكرية وترتكز على مؤهلات علمية وتعيش في عزوف تام عن شهوات النفس الآثمة، وتتفرغ للتأمل في الخير الاسمي والإصلاح الاجتماعي، وليس فيها وراثة للحكم، بل ولا انتماء للطبقة الاجتماعية إلا بخصائص ومميزات فطرية، ولم يصل الفيلسوف إلى الحكم مدفوعا بقوة مادية غاشمة، بعكس الحاكم المطلق الذي يؤمن بدكتاتورية الحكم والسلطة.(34)

اجمع المفكرين والفلاسفة على أن مدينة الفارابي حلم صعب التحقيق، فهي عند الدكتور إبراهيم مدكور: مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبي، وهى مدينة لا وجود لها إلا في مخيلة الفارابي.(35)

أما جميل صليبا فيرى أم مدينة الفارابي حلم لذيذ ولكن الأحلام ليست دائما خالية من الحقائق وكثيرا ما يفضل الخيال على الحقيقة وتنسج الحقائق من خيوط الأحلام.(36)

أما ديبور فيرى أن آراء الفارابي فى مدينته تبدد من خلال ضباب فلسفي.(37)

وأخيرا قدم مور صورة لعالم جديد لا يمثل في حقيقته العالم المثالي المرغوب فيه بقد ما تتمثل فيه مساوئ عالم الواقع بشكل مفرط وذلك على سبيل التحذير

والتبصير بما يهدد الإنسانية من أخطار، نعم لقد قدم مور صورة مثالية لدولته المثالية وفى نفس الوقت قدم صورة قاتمة لمساوئ العصر الذي عاش فيه، وعلى هذا فان فكرة المدينة الفاضلة في الفكر الفلسفي عبر العصور المختلفة تكشف عن كثير من المساوئ والأنظمة الفاسدة التي سادت العالم في عصور مختلفة ومحاولات الإنسان عبر كل عصر مقاومة هذا الفساد والانهيار الأخلاقي كل بطريقته

مراجع البحث

(1) إبراهيم مدكور. المعجم الفلسفي. القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1983. ص 174.

(2) فاروق سعد. مع الفارابي والمدن الفاضلة. القاهرة، دار الشروق، 1982. ص77.

(3) محمد سيد أحمد المسير. ط2 المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه. القاهرة، دار المعارف، 1982 . ص 9.

(4) نفس المرجع. نفس الموضع.

(5) نفس المرجع. ص63.

(6) على عبد الواحد وافى. المدينة الفاضلة للفارابى. القاهرة، مكتبة نهضة مصر, (د–ت) ص22 وما بعدها.

(7) أحمد المنياوى. جمهورية أفلاطون. دمشق، دار الكتاب العربي، 2010. ص10.

(8) ماري الويزا. المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 225. 1977. ص 7 وما بعدها.

(9) أحمد المنياوى. جمهورية أفلاطون. مرجع سابق. ص 10.

(10) ماريا لويزا. المدينة الفاضلة عبر التاريخ مرجع سابق . ص 7 وما بعدها.

(11) نفس المرجع. ص 97-98.

(12) نفس المرجع. نفس الموضع.

(13) نفس المرجع. ص7-8.

(14) فاروق سعد. مع الفارابي والمدن الفاضلة. مرجع سابق. ص 98.

(15) محمد سيد احمد المسير. المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي. مرجع سابق، ص43.

(16) ماريا لويزا. المدينة الفاضلة عبر التاريخ. مرجع سابق. ص 26 .

(17) نفس المرجع ص 27.

(18) نفس المرجع. نفس الموضع.

(19) ابن رشد. الضروري في السياسة: مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، ترجمة احمد شحلان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998. ص25.

(20) ماريا لويزا. المدينة الفاضلة عبر التاريخ مرجع سابق. ص27.

(21) نفس المرجع . ص28.

(22) على عبد الواحد وافى. المدينة الفاضلة للفارابي، مرجع سابق. ص 24.

(23) نفس المرجع. ص25 .

(24) الفارابي. كتاب الملة ونصوص أخرى، تحقيق محسن مهدي. بيروت، دار المشرق، 1996. ص24.

(25) إبراهيم مدكور. في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، الجزء الأول، القاهرة، دار المعارف، 1976. ص76.

(26) ماريا لويزا. المدينة الفاضلة عبر العصور. مرجع سابق ص86.

(27) نفس المرجع. نفس الموضع.

(28) توماس مور. ط2 يوتوبيا، ترجمة انجل بطرس. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987. ص 14 .

(29) نفس المرجع. نفس الموضع.

(30) نفس المرجع. نفس الموضع.

(31) نفس المرجع. نفس الموضع.

(32) إبراهيم مدكور. في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، الجزء الأول. مرجع سابق

ص 72.

(33) ابن رشد. الضروري في السياسة. مرجع سابق. ص24.

(34) محمد سيد احمد المسير. المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي. مرجع سابق.

ص113-114.

(35) إبراهيم مدكور. في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، الجزء الأول. مرجع سابق

ص72.

(36) جميل صليبا. من أفلاطون إلى ابن سينا. دمشق، مكتبة النشر العربي، 1935 ص 80

(37) ديبور. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار النهضة العربية، 1954 ص 151 سواء كان هذا العمل محاورة أو قصة فلسفية أو قصيدة من الشعر أو قصة خيالية.